حديث المجالس

« اراء وسوانح وحقائق وطرف »

﴿ اغنى انسان في العالم ﴾

ليس هو ركفلر ، او مورغن ، او روتشيلد ، او كروب . وليس هو من الاغنياء البسيطين المعروفين الذين تقاس ثرواتهم بمقدار ما يدفعون عليها من الضرائب للحكومة . الرجل الذي نحن بصدده هو قيصر روسيا ، ولا أحد عَلَى وجه البسيطة يستطيع ان يحصي غناه . وكل ما يُعرف عن ثروته ان مدخوله اليومي يبلغ مليوناً من الدولارات . وبناء عَلَى هذا يقدر المحصون ثروته بقيمة تتراوح بين العشرة والثلاثين ملياراً من الدولارات

لقيصر روسيا من الاملاك الخصوصية مائة وخمسون مليون فدان كلها اراضٍ غنية بالمعادن والاحراج والحقول المخصبة التي تكفي محصولاتها تموين اوروبا كلها . والخزينة الروسية تدفع له راتباً سنوياً مقداره عشرة ملايين دولار ، ولكن اذا خطر له ان يزيد في قيمة هذا الراتب فليس عليه سوى ان يصدر أمراً قاضياً بذلك ، فينال ما يريد دون معارضة .

والقيصر الروسي يدفع مصاريفه كلها من جيبه ، اي انه هو ، لا الحكومة يقوم بنفقات بلاطه وقصوره العديدة وحاشيته . ويقال ان له من الحاشية ما ينيف عَلَى ثلاثين الفاً بين خدم وحشم ، ومن السيارات نحو ثلاثمائة ،

ومن الخيل نحو خمسة الاف

وللقيصر سيطرة عَلَى كل مناجم سيبيريا فهو يتقاضى جعالة معلومة عن كل مثقال من المعادن المستخرجة منها ، ذلك مقابل حقه في ملكيتها . وللعائلة المالكة املاك واسعة وثروة عظيمة للقيصر الحصة الكبرى منها ، ولكن له من غناه الشخصي ما ينسيه غنى عائلته الجزئي .

كل ما ذكرناه يثبت ان غنى قارون في الماضي ، وغنى المتمولين الحديثين في العالم الجديد ليس بشيء بازاء غنى القيصر الروسي الذي يستطيع وحده اذا شاء ان يقرض الخزينة الروسية قرضاً تستطيع معه متابعة الحرب حتى النهاية فيما اذا اقفلت المصارف الاجنبية ابوابها في وجه دولته .

﴿ فردون وتاريخها الدموي ﴾

ليست هي المرة الاولى التي تقف فيها مدينة فردون سداً حصيناً في وجه الغزاة ، ولا لاول مرة تسيل حولها الدماء سيولاً طافحة ، بل من يراجع أنباء التاريخ يتضح له جلياً ان حكمة القدر شاءت ان تختار فردون لتكون صخرة متينة تتدفق حولها امواج المعامع بين مد التاريخ وجزره

يرجع تاريخ فردون الحربي الى عهد المملكة الرومانية الاولى قبل المسيح باجيال . فقد كانت تلك البقعة المحصنة تحصيناً طبيعياً عَلَى ضفاف نهر الموز في شمالي فرنسا مركزاً حربياً رومانياً يُعرف بمعسكر فردونوم . ظل في قبضة الرومانيين زمناً الى ان اكتسحته البرابرة ودكته الى القاع ايام

خمول القياصرة الرومانيين ، فلم يكن له شأن يذكر حتى الجيل الخامس بعد المسيح ·

ثم استولى عليه كلوفيس ملك الفرنك سنة ٥٠٢ حين نهضته المشهورة لاستئصال دابر امراء الفرنك غير المسيحيين · مدفوعاً الى ذلك من زوجته المسيحية البرنسس كلوتيلدا البرغندية الغيورة عَلَى الدين ·

ثم صارت فردون في الجيل الحادي عشر مدينة المانية ، واصبحت بعد قليل معرض نزاع بين الاهالي واساقفة تلك الابرشية حتى فاز الاولون بما يبتغون من الحقوق · ثم بعد ان ارتقت فردون الى مصاف المدن الملكية الحرة استولى عليها الافرنسيون عام ١٥٥٢ · وبعد مائة سنة أعطيت لهم قانونياً وظلت في حوزتهم حتى الان ، ما عدا مرتين حاصرها فيهما النوتونيون واستولوا عليها · فالمرة الاولى كانت في اثناء حرب ١٧٩٢ عقيب الثورة الافرنسية حين سقطت فردون في يد الالمان بعد معركة دامت بضع ساعات فقط · ولما دخل الظافرون المدينة استقبلهم الاهلون باكرام واحتفال · وكان ممن خرج لاستقبالهم جوق من الفتيات الجميلات يحمل اليهم نوعاً من الحلوى اشتهرت فردون بصنعه · عَلَى ان سكان فردون دفعوا فيما بعد ثمناً باهظاً لاستقبالهم اعداء فرنسا بهذا الاكرام · فان الثوريين الافرنسيين استولوا عَلَى المدينة بعد ظفرهم في معركة فالمي وعاقبوا كثيرين من الاهالي بالعقابات الصارمة · والتاريخ يذكر ان ثلاثاً من اولئك الحسان اللواتي قدمن الحلوى للالمان عوقبن بالقتل ·

والمرة الثانية كانت سنة ١٨٧٠ ، ولكن الالمان لاقوا فيها من المقاومة غير ما عهدوه في المرة السابقة . الا انهم امطروا المدينة وابلاً من نار القنابل والرصاص ثلاثة اسابيع بلا انقطاع فسقطت ، ولكن فرنسا تعلمت من سقوطها درساً نافعاً فاخذت بعد عقد السلم تسعى في تحصينها حتى اصبحت اليوم من امنع قلاع العالم .

﴿ بعض الحروب انتهت بالولائم ﴾

انتهت حرب البوير الاولى بوليمة اقامها الجنرال كرونجي اكراماً لضباط الانكليز جرت فيها خمرة شامبانيا انهاراً

وانتهت الحرب الوطنية في الولايات المتحدة بان الجنرالين غرانت ولي اجتمعا تحت شجرة التفاح في ابوماتوكس وشربا هنالك زجاجة من خمرة التفاح وهما يبالغان في مدح احدهما الاخر ، بينما كان ضباطهما يتمتعون بفطور لذيذ تخللته الفكاهة والنكات .

وانتهت حرب فرنسا والمانيا السبعينية بوليمة فاخرة في فرساي اقامها بسمارك اكراماً لضباط الالمان والافرنسيس في نزل وزرقوا . وهنالك في منتصف الليل أطلقت آخر طلقات في الحرب ولكنها لم تكن من افواه المدافع او البنادق بل من افواه زجاجات الشامبانيا

وعند انتهاء الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ أدب الجنرال نوجي مأدبة انيقة لاركان الحرب الروسيين في شاهوتو . شرب فيها العدوان المتصالحان عدا الخمر كثيراً من الشاي .

العالم بعد الحرب

ماذا يستفيد العالم من هذه الحرب ؟ وأي التغييرات تطرأ عليه بعد انتهاء الامم من عراكها ؟ وهل تشتري البشرية شيئاً بثمن الدم المراق ؟ وهل تؤدي الحرب الى هلاك المدنية الحالية او الى ازدهارها ؟ — كل هذه اسئلة تشغل في الوقت الحاضر عقول المفكرين وتعالجها اقلام الكتاب في كل قطر ، ولكن اصابة الرأي في هذه الشؤون الجلى ليس باليسر ، ولا يدري سوى منظم الاكوان ما سيأتي به المستقبل

على ان في ايراد اراء المفكرين شيئاً من اللذة والفائدة . ولذلك نقتطف منها بعض ما جادت به قرائح كبار الكتاب على مجلات اوروبا الكبرى

قال احدهم — كان العقلاء قبل هذه الحرب يظنون ان نمو المدنية المادية يؤدي الى ايقاف المعارك الدموية — ولكن الامر جاء بالعكس . فان هذا النمو آل الى حيرة الشعوب وتناقض المسائل السياسية والاشتراكية. فلم تجد الشعوب من حل لها الا بتجريد السلاح

اما السؤال . الى اين تقود الحرب يا ترى — ألى هلاك المدنية ، أم ازدهارها أم بقاءها على حالها ؟— فصعب علينا ان نحله . ولكنا نستدل بعض الدلالة على حله من اقوال الكتاب الذين هم آلات حساسة يضربها على أوتارهـا شعور الشعوب . فقد كان ارباب الاقلام كلهم في السنين الاخيرة يتغنون بنغمة واحدة هي — الاشمئزاز من الحاضر ، والطموح الى شيء جديد غير ما نعهده

وقال آخر — يسأل البعض متى يأتي ملكوت الله عَلَى الارض · وجوابي عَلَى ذلك — لا ادري · فقد كانت الديموقراطية الحديثة أخذت بتقويض أساسات الديانات القديمة لتضع عَلَى انقاضها أساساً لديانة واحدة قائمة عَلَى مبادىء الانسانية · ولكنها أخفقت الان بعد ان انقسمت الانسانية نفسها الى انسانيات شتى مستقلة فاصبحنا ولنا منها الانسانية الالمانية ، والانسانية الانكليزية والانسانية الافرنسية ؛ وهلم جرا ··· فلم يبقَ من الجسم الصحيح الا بعض الحطامة والقشور

وقال غيره — ستطرأ عَلَى العالم بعد الحرب تغييرات هامة في الامور الاقتصادية والاشتراكية · وأهم ما سيحدث من هذا القبيل النقص في عدد السكان ، والتفاوت في تناسبهم من حيث الجنس ؛ والانقلاب في العلائق الجنسية بين الرجال والنساء · فان خسارة الرجال في الحرب الحالية لن تقل عن عشرة ملايين نسمة من الشبان الاقوياء الاصحاء · فتصير الاكثرية للنساء اللواتي يستطعن حينئذٍ ان يرفعن مكانتهن ويعززن جانبهن في الحياة الاجتماعية ·

وسوف تكون هذه الحرب واسطة لتقليل عدد سكان المدن ، فتقل واردات الاملاك ، فيتاح اذ ذاك للحكومة ان تهدم البنايات القديمة المتداعية والاحياء القذرة وتبني عَلَى انقاضها المعاهد النافعة والرياض والمتنزهات ، وتخطط الشوارع المنظمة ؛ فتصبح الحياة في المدن صالحة ، موافقة للصحة داعية الى الراحة وصفاء العيش ·

وسوف ترخص الاراضي الزراعية والمراعي فيكثر عدد الفلاحين والرعاة. اما الخلاف المتفاقم كل يوم بين العمال واصحاب الاموال فيزول اذ يُشرك الاسياد عمالهم في الارباح ، فيمشي الفريقان بموجب معاهدات موافقة للجانبين

ولكن الضرائب العمومية ستثقل عاتق الاهالي وسترتفع اسعار حاجات المعيشة فيخشى من ثورات محلية . وسيتعود الناس عمل الخير اثناء هذه الحرب فتبقى هذه العادة الحميدة فيهم حتى بعد الحرب

وقال آخر . — لا بد بعد الحرب من حدوث انحطاط كبير في الاداب الاجتماعية . وقد بدأت علامات الفساد في الاداب تظهر منذ الان في البلاد المتحاربة فاصبحت الاعراض المقدسة تداس والحرمة تهتك ولا سيما حيث يمر الجنود في بلاد الاعداء . ولا ريب ان ذلك الفساد الادبي سيزداد يوماً عن يوم حتى يصبح داء عضالاً يستحيل شفاؤه فيقبض على خناق التمدن ويدوس الشرائع والعلوم ويقود العالم الى ظلام دامس فتصبح الارض مسرحاً للخلاعة والقبائح وتصير الحياة جحيماً

هذا بعض ما يقوله كبار المفكرين . ولا ريب ان في اقوالهم بعض الحقيقة التي سيكشفها لنا الزمن . على ان الاراء كلها مجمعة على امر واحد هو انه لا بد من حدوث تغيير مهم في حياة الشعوب وتمدنها بعد انتهاء هذه الحرب العظمى . ومن يعش يرَ

. . .

﴿ اللورد كتشنر في نظر التاريخ ﴾

في الخامس من شهر حزيران الماضي غرقت قرب سواحل جزائر اورکني الغربية الطراد هامبشير الانكليزية بعد ان اصطدمت بلغم . وغرق معها اللورد كتشنر وزير الحربية الانكليزية بينما كان في طريقه الى روسيا .

خسر الانكليز بوفاة اللورد كتشنر رجلاً من بُناة المملكة البريطانية العظمى والمحافظين على كيانها . فمن المعلوم ان المملكة البريطانية — كما نعرفها الان — حديثة السن . فقد كانت سابقاً مملكة صغيرة محصورة ضمن نطاق جزائر انكلترا . ولكنها اخذت في الاتساع منذ عهد حديث ، وانضمت اليها الممتلكات واسعة الاطراف سنة ١٨٥٨ ، وما لبثت عقيب ذلك ان تبعتها بلاد كندا وصارت كلها بساحتها الفسيحة جزءاً من هذه المملكة الكبيرة . ولحقتها في الجيل العشرين اوستراليا ثم جمهورية ابو بر في افريقيا — وهذه انضمت الى المستعمرات الانكليزية في جنوبي افريقيا والفت معها مستعمرة متحدة ، منظمة ، مستقلة بادارة شؤونها الداخلية . ثم بعد اعلان الحرب الحالية استولت بريطانيا على مقاطعتي افريقيا الجنوبية الغربية وغوينيا الجديدة الشرقية .

وكان لكتشنر يدٌ طولى في بناء بعض أقسام هذه البناية المتينة الكبيرة . فهو الذي خضد شوكة المتمهدي في السودان واستولى على الخرطوم عاصمة تلك البلاد فحاز بذلك لقبه المشهور « كتشنر اوف خرطوم » . وهو الذي ثبت قدم انكلترا في تلك الانحاء ، وهو الذي قمع ثورة البوير ، وساس الهند بحكمة ايام كان يخشى من ثورتها وانتفاضها ، وهو الذي اكتسب بسياسته حب الفلاح والاهلين لما كان نائباً في مصر فتمكنت انكلترا بهذه الواسطة من ضم مصر الى املاكها ضماً لم يحل

دونه معكر او مانع من قبل الاهلين .

ولد هوراتيو هربرت كتشنر في ارلندا سنة ١٨٥٠ من ابوين انكليزيين . ودخل تلميذاً في المعهد الحربي الملكي في وولويتش فتخرج منهُ بوظيفة ضابط مهندس . وتطوع في صيف عام ١٨٧٠ في الجيش الافرنسي واقتحم غمار الحرب السبعينية ، فكان بذلك رصيفاً في السلاح لجوفر وغاليفي وبو الذين صاروا فيما بعد زملاءه في قيادة جيوش الاحلاف .

وفي سنة ١٨٧٤ انتدب لمرافقة بعثة اثرية الى فلسطين ، فظل فيها حتى سنة ١٨٧٨ حين رحل الى قبرص بعد ان اكتسبتها انكلترا من تركيا حلواناً على تدخلها في حرب روسيا وتركيا ، فتابع هنالك ابحاثه الاثرية اربع سنوات وتمكن كتشنر اثناء مكثه بفلسطين من اتقان اللغة العربية اتقاناً نفعه فيما بعد نفعاً جماً في مصر والسودان .

وقد سهلت له معرفة اللغة العربية ان ينتظم في خدمة الحكومة المصرية سنة ١٨٨٢ بعد مغادرته قبرص ، فصار قائداً لفرقة من الخيالة واشترك في الحملة النيلية سنة ١٨٨٤ التي نال فيها لقب لبوتنانت مع الوسام المجيدي من الطبقة الثانية والنجمة الخديوية .

وسنة ١٨٨٦ عين حاكماً على سواكن في السودان وظل هنالك حتى سنة ١٨٨٩ ثم ما بين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٢ خدم الجيش المصري بوظيفة جنرال ، فكان في الظاهر من تباع الخديوي وفي الباطن من دعاة بسط النفوذ البريطاني فوق مصر .

وفي سنة ١٨٩٣ عين قائداً عاماً للجيش المصري وحاز على لقب سردار ، فعمل على تنظيم الجيش المصري ، وكانت له اليد الطولى في مساعدة اللورد كرومر على

حفظ النفوذ السياسي في مصر للانكليز .

وفي سنة ١٨٩٨ قام بالحملة التي اكسبته شهرة واسعة في العالم . وهي الحملة على الدراويش الذين كانوا قد نهضوا قبل سنين بزعامة المتمهدي واستولوا على الخرطوم وقتلوا غوردون باشا الشهير . فمد كتشنر خطاً حديدياً الى الجنوب ونقل عليه الجيوش الى السودان وقهر خلفاء المتمهدي واستولى على عاصمتهم ام درمان فارجع بذلك العمران والنظام الى السودان بعد فتنة كان فيه الاخضر واليابس .

واشتملت بعد هذا بقليل حرب البوير فاخفق الانكليز في بدئها ايما اخفاق . فدعا ذلك الى انتداب كتشنر ليكون من قوادها ، فأمّ افريقيا الجنوبية بوظيفة اركان حرب للورد روبرتس اولاً ثم خلفه في القيادة العامة سنة ١٩٠٠ ، فنالت الانكليز النصر النهائي على يده .

ثم عين قائداً عاماً في الهند سنة ١٩٠٢ وظل في هذا المنصب حتى ١٩٠٩ ، فتمكن هنالك من تأليف الجيش الهندي وتنظيمه على النسق الحديث . وكانت الهند على وشك الثورة فاخلدت الى السكينة لما رأته من عزم كتشنر الحديدي .

ثم ارسلته الحكومة سنة ١٩١٠ الى مصر ليكون « وكيلها وقنصلها العام » هنالك . وهي وظيفة حقيرة بالاسم ولكنها تعني السيطرة على الحكومة المصرية وتخوّل صاحبها ان يكون ذا يد أعلى من يد الخديوي .

فدخل على البلاد اصلاحات شتى . وظل كذلك الى ان اعلنت الحرب الحالية وادركت انكلترا حاجتها الى رجل ندب خبير بالامور العسكرية ، فانتقتهُ من بين رجالها ليشغل اهم مركز فيها في ذلك الحين — وهو نظارة الحربية . فدخل كتشنر وزارة الحربية وليس لبلاده جيش يذكر ، ولكنهُ تمكن بمقدرته ونشاطه من تدبير

جيش كبير لم ترَ مثله المملكة سابقاً . ومات كتشنر بعد ان أتم عمله في خدمة وطنه تاركاً بعده أثراً كبيراً هو الجيش البريطاني المدرب .

ولا شك في ان التاريخ سيخلد كتشنر لمآتيه العسكرية ولخدمة بلاده باخلاص . وسيذكره الخلف مع من خلد ذكرهم من كبار القواد الذين كان لهم شأن في صنع التاريخ وتغيير الممالك . وستذكره انكلترا بالاخلاص لانهُ خلصها من اربعة مآزق الاول فتنة المتمهدي . والثاني حرب البوير . والثالث تحفز الهند للثورة . والرابع خور الجيش الانكليزي .